السكن الاجتماعي / العائلي

1,07 × 1,07 - 1982

هل بامكانهم حذف أحلامنا ؟

كنت في الرابعة من عمرى، وفي هذا السن تكون للكلمات قيمة خاصة... كانت كلماتي الاولى باللغة الفرنسية. أما والدىّ فلم يتعلما قط الفرنسية.

ان هذه الكلمات التي كنت أنطق بها في لغة أجنبية على عائلتي، كانت تخوّل الي، وأنا طفلة صغيرة، وضعية جديدة وخاصة للغاية. والجدير بالذكر، أن تعلمي هذا تم بمستشفى ارنبست كونای بتونس، الذى كان مستشفى "فرنسيا" وقتها، دخلته على اثر مرض دام مدة طويلة، كنت خلالها محرومة من أية حركة، اذ كان جسمي كله داخل اطار من الجبس.

وكان الود والرعاية التي أحاطني بها الاطباء تمنحني الثقة في النفس، كما أن تعرفي على اللغة الفرنسية، وميولي اليها كانا يشكلان ضمانة بالنسبة لمستقبلي. وكان والدىّ يزوراني دوريا في المستشفى، ويحيطاني بحبهما اللامحدود، ويقدمان الي كل ما لديهما لاجل علاجي وانهاء مرضي الطويل والموءلم، الذى لم يكونا يعرفان عنه شيئا، لانهما كانا شابان لا يملكان الوسائل والموءهلات اللازمة لمواجهة وضعية صعبة من هذا القبيل.

وبدأت المسافة بيني وبين والدىّ تكبر أكثر فأكثر، فكانا يكلماني بالعربية وكنت أرد عليهما بلغة فرنسية تتخللها كلمات عربية كنت أحفظها لاجل ارضائهما. لقد كان فراقهما يوجهني في طريق كنا نجهلها جميعا.

وعندما بلغت التاسعة من عمرى، غادرت المستشفى، فبدا لي العالم الخارجي فتانا وغريبا في نفس الوقت. كان هناك قطار وسيارات وناس يتحدثون، لكنني لم أكن أفهم ما يقولون.

وكان أبي يعلمني جميع الكلمات التي كنت أجهلها، لكنني لم أكن قادرة على النطق بها كما ينبغي، وهذا ما كان يثير سخرية الجميع، الشيء الذى كان يقلقني ويغيضني، فكان التواصل مستحيلا في بعض الاحيان، وبقي المستشفى عزيزا على قلبي.

وذات يوم، قرر والدىّ أن يرحلا الى زارزيس، مسقط رأس أبي، وهي واحة صغيرة بالجنوب التونسي. فسجلني أبي بمدرسة التام، وهي قرية صغيرة في ضواحي زارزيس، حيث كان قسمين أو ثلاثة تدرس فيهم الفرنسية كلغة أم!

وفي اليوم الاول من الدخول المدرسي، غنى لنا المعلم ــ وهو تونسي من

زارزيس ساعده الحظ على متابعة دراسته ـ أنشودة "فرير جاك" من أجل أن نحفظها. وكم كان استغرابه وتعجبه كبيرين عندما اكتشف أنني أعرف الانشودة جيدا، وأنطق بكلماتها نطقا فرنسيا "عجيبا". فأخذني المعلم في جولة، من قسم الى آخر، لاغني الانشودة المذكورة، وأنال تقدير رفاقي الصغار والمعلمين ومدير المدرسة. يا له من فخر واعتزاز بالنسبة لطفلة صغيرة، مثلما كنت آنذاك! فأخيرا التقيت من خلال معلمي بروح طيبة تعترف بجميل المعرفة التي حصلت عليها، والتي كانت محط احتقار من طرف والدىّ أنفسهما.

وبعد سنوات، علمت عن طريق أبي أن معلمي قد قتل هو وزوجته وأولاده من طرف جنود فرنسيين بمنطقة رمادة (قرية في الجنوب التونسي على أبواب الصحراء)، وذلك خلال أحداث تاريخية عرفتها تونس. فكانت هذه جريمة شنعاء، اذ قام الجنود بقتل الاب والام وتركوهما يسبحان في دمهما، وأقفلوا المنزل تاركين الاطفال داخله. وفي اليوم التالي، رجعوا لقتل الاطفال.

كم كان خجلي كبيرا لكوني تعلمت الفرنسية.

كانت الخيانة مسجلة في جسمي ووجداني، والثقافة الاستعمارية التي واصلت عملها، كانت تترصّع داخلي ببطء واصرار. كانوا يدرسونني، فكنت أتعلم، وبدأت أعتقد أن هذه الثقافة الفرنسية "كانت خالية من أى شكوك"، اذ كانت تريد لي الخير، وتخرجني من التخلف... فكانت جذورى تقطع بشكل حتمي، وكانت الهوة تتعمق بيني وبين بيئتي الاصلية، وأصبحت القطيعة واضحة.

.....

أقيم في فرنسا منذ ١٢ سنة. وبعد أن أتممت دراستي في مادة علم الاجتماع، اشتغلت في ميدان الهجرة. مهاجرة عند المهاجرين: أى شيء أكثر منطقا! أليس هذا هو المنتظر مني منذ أن همست في أذني الكلمات الاولى؟

وكمنشطة مهاجرة في مركز اجتماعي ـ ثقافي تابع للحي، أشتغل مع أناس يعيشون مثلي ظروف الانتقال واقتلاع الجذور والتمزق، في وسط غير عادى ولا معتاد، رجال وحيدون يعيشون فيما بينهم محرومين من نسائهم وأطفالهم. وحتى اذا ما اجتمعت العائلة كلها، فانها تعجز عن التعرف على نفسها، لانها لم تعد نفس العائلة السابقة. عندما تأتي الى فرنسا، فأنها تعاني من الاضطراب الحاصل في تكوينها الاولي نتيجة فقدانها عددا من العلاقات، وعددا من الافراد الذين ينتمون للعائلة الواسعة في المغرب العربي. والهجرة هي التي تخلق الكسر والتمزق الذى يؤثر فينا ويبدلنا.

ومع تطور وعيي بفضل الهجرة وأولئك الذين يحيطون بي وبحياتي اليومية، أصبح مشروعي هو البحث عن الوجود، الذى ينطلق من بحث شخصي ليصل الى فهم

وضعية جميع هؤلاء الرجال الذين يبحثون عن أنفسهم ومستقبلهم في هذا العالم الحضرى الذى أصبحت فيه الحياة كلها ضوابط ومؤسسات، وأصبحنا نحن في عديد من الحالات، عبارة عن أسماء أو أرقام فوق الاوراق التي تشهد بمرورنا: مرور متكرر وغير معترف به. وفي هذا العمل اليومي كمنشطة، أواجه الازمات النفسية التي يعيشها المهاجر أمام أبسط ورقة من هذا النوع.

لكن كيف يمكن تفسير اصرارى هذا على الاشتغال في هذه البيئة المغربية العربية، بينما كان مصيرى، بعد أن حصلت على شهادتي في علم الاجتماع، هو أن أصبح في بلدى "اطارا نسائيا ديناميكيا"، وفي حين أن هذا التعلم كله كان هدفه الضمني هو ابعادى عن بيئتي الاصلية، و"تطبيعي"، وارجاعي ليّنة "لاخدم" أولئك الذين علموني؟

ان هذا الاصرار كان بالنسبة لي شخصيا، بمثابة نمط من المقاومة ضد "هجوم ايديولوجية الاحتواء"، ومن أجل الالتحاق من جديد ببيئتي الطبيعية، فالاشتغال في ميدان الهجرة هو بشكل من الاشكال، عبارة عن "تقويم للشر" و"علاج للداء" الذى سكنني منذ أول يوم بدأت أتمتم فيه كلمات أولئك الذين جرحونا، فهل سيشفى الجرح ذات يوم؟

تقويم شر الامية التي يعاني منها والدىّ، وشر القطيعة والهوة التي نشأت بيني وبين بيئتي منذ أول لحظة وضعت فيها على عاتقي "الخروج من هذا الوضع"... الذى أتيت منه... فسجّلت في نفسي هذه الخيانة، وازدادت الازمة على مر الزمان والاعوام.

واليوم، فانني أعمل جهد مستطاعي للرجوع الى منبعي، والعودة بالمعرفة الى حضيرة جاليتي، وهي الطريقة التي اخترتها لتقويم هذا الشر. انني مثلي مثل من تعلم طقوسا ما، وأصبح من جراء ذلك ملزما بايصالها الى غيره لسد دائرة الحياة، أى، بالنسبة لنا: دائرة ايصال المعرفة.

ان قصتي تندرج اليوم ضمن معركة بدون حدود. معركة الرجوع الى أصولي وثقافتي، وانتمائي لهوية صنعها التقاء بين آلام وأفراح... واذا كانت الازمة مستمرة، فانها معاشة ومعبّر عنها، الشيء الذى يجعلها أكثر حيوية. انها معركة الحرية التي يتم الطعن فيها، وفي نفس الوقت، استردادها بشكل مستمر. حريتي أنا، وحرية النساء ـ اللواتي انتقلن من مرحلة الاختفاء الى مرحلة الظهور بدون خوف، حيث أصبحت صورهن على أعمدة الجرائد ـ اللواتي أكتشف معهن التضامن والامل في حياة أخرى، من خلال اقتسام ثقافاتنا المتعددة. حرية الاطفال الذين أكتشف معهم من جديد، أفراح الالعاب المجهولة، وحرية اللغة الام، التي ظلت طويلا مبعدة عن قصتنا الشخصية، والتي لا زالت تعاني من اهانة أولئك الذين يعتقدون أن علينا أن نخضع للتعليم السيء النية الذى تفرضه الايديولوجية السائدة، لانهم يريدون أن تلغى من

أحلامنا العودة الى بلادنا ، وبذلك سيتم ضمان الخلافة في الشغل. حرية آلاف العمال الذين يشاهدون ضياع قوتهم ، ويحسّون بالطعم المر للمال الذى يتم الحصول عليه في فرنسا ، والذين يستمرون ، رغم ذلك ، في الاعتقاد بأن لا نجاة بدون فرنسا.

انطلاقا من هذا البحث المضني ، تتداخل عدد من الوضعيات : أزمات ، انقطاعات ، تجاوزات.. يمكنها أن تؤدى اما الى اندماجنا ، أو الى بروز ابداعاتنا التي سنفرض من خلالها وجودنا ، ونصبح أناس متكاملين في هذه المدينة وهذا البلد.

من هنا خرجت الى الوجود جمعية "عطر الارض" التي تضم نساءا مهاجرات وفرنسيات ، والتي حددت لنفسها هدف ايجاد "ساحة للابداع الثقافي" حول حمام وورشة للانتاج الفني والحرفي. ان طموح هذه الجمعية هو السماح بالتصالح بين شعبينا ، وقطع خطوة الى الامام نحو الحوار الحقيقي مع العالم الذى نعيش فيه.

شريفة بن عاشور